المحاضرة الرابعة
أدونيس والقراءة الإديلوجية للتراث (1)

يُعدُّ أدونيس في طليعة الحداثيين العرب الذين عنوا بقراءة التراث الأدبي والنقدي والفكري العربي، قراءة يصفونها بـ"الحداثية". ومع أن الحداثة في جوهرها داعية إلى الانضباط المنهجي والدقة العلمية والموضوعية المعرفية، فإن الوصف بـ"الحداثي" في خطابنا العربي المعاصر يكاد يُحيل على نقيض ذلك من التعسفية والانتقائية والنزعة الإدْيُلوجية؛ وتلك هي خصائص القراءة الأدونيسية للتراث النقدي والفكري العربي؛ فالهدف مُسبَّقٌ، وهو إديُلوجي لا معرفي، "هدمُ الأصل بالأصل ذاته"، كما يصرح هو، والمنهج هو أن يُستخلَص من النص المعنى الذي يريده الناقد لا الذي يحمله النص. وأن يُنزع النص من سياقه الثقافي والحضاري ليؤدي دلالة ويدل على قيمة مخبأتين في إرادة القارئ لا دلالة النص. وأن يُنتقى من النصوص، على ما في فهمها من تعسف، ما يتوافق مع الهوى الإديلوجي ويتطابق مع الهدف المسبق. وكل ذلك هو ما قصدنا به "أدلجة النقد"، وسنقف خلال هذا البحث على إبراز مظاهر هذه الأدلجة، وقوانين اشتغالها –إن صحّ لهذه الأساليب أن تسمى قوانين-. وسنجتهد في كشف فساد هذا المنهج في القراءة –إن صح أن يسمى هذا التعسف منهجا-. وستكون إحدى وسائلنا في ذلك تفكيك الخطاب بحيث يكشف عن تهافته بذاته، حيث التناقض هو كبرى صفاته.

1. الإدْيُلُجْيا منهجا نقديا!

حين يتصدى باحثٌ ما لدراسة مسألةٍ ما، لغوية أو أدبية أو تاريخية أو اجتماعية أو دينية أو فكرية، فهو على مفرق أحد اتجاهين: إما اتجاه النظر في المسألة كما هي في مادتها الواقعية الحاصلة، وبنيتها النسقية المتكاملة، لغرض معرفتها على حقيقتها، وتفسير عناصرها وعلاقاتها، والإفادة من ذلك في بناء معرفة سليمة بالظواهر الكونية، وتحصيل علاقة نفعية بهذه المعرفة؛ وإما اتجاه النظر في المسألة كما يريد لها الباحث أن تكون، أو كما يتمنى لها أن تُتَصور، أو كما يُفضّل هوى الجماعة التي ينتمي إليها ومصلحةُ الفكرة التي يريد نصرتَها أن تُقرَأ وتُفهَم؛ لا لغرض إدراك الحقيقة كما هي، بل لغرض توجيه المسألة إلى حيث تنتصرُ الإدْيُلُجْيا، وتتحقق مصلحة الطائفة أو الجماعة، ولو بالتزوير والتزييف والمغالطة والتعسف.

أما الاتجاه الأول فله مناهج عدة يحاول كل منها أن يتحقق بالموضوعية؛ بمعنى دراسة الموضوع في ذاته لتحقيق معرفة علمية لا مصلحة ذاتية، وأما الاتجاه الثاني فهو هذا الذي وصفناه بالإدْيُلُجْيا؛ وهي ليست بمنهج نقدي في واقع الأمر، ولكنّ كثيرا من نقادنا العرب المعاصرين

يمارسونها في قراءتهم لتراثنا النقدي أو الفكري، بعدّها أفضل طريق للوصول إلى نتائج ترضي الهوى الفكري أو الميل السياسي أو النزعة المذهبية، وتحقيق لونٍ من النصر الفكري في سجال المذاهب والعقائد والنظريات. وقد مارس أدونيس هذا المنهج باقتدار مكّنه من كسب جمهور من الأدباء والباحثين، ولكن إلى حين. وقد قام هذا المنهج الإدْيُلُوجي في قراءته للنص النقدي التراثي على الوسائل الإجرائية والخصائص الخطابية الآتية:

1.1.الفرضية المسبّقة والحكم المخبّأ

ينطلق أدونيس في قراءته للتراث العربي من نسق إديلوجي مسبّق هو نسق الحداثة بصورتها الغربية. ومن حق أي باحث أن يكون له إدْيُلُجْيا بالمفهوم الحيادي للإدْيُلُجْيا (أي النسق من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والنظريات)، وأن ينطلق منها في قراءته وتقويمه لأي ظاهرة إنسانية. ولكن أدونيس يتجاوز هذا المستوى الحيادي من الإدْيُلُجْيا إلى المستوى السلبي الذي يعني التحكّم والتعسّف وتوجيه القراءة وجهة معلومة الهدف مسبّقة النتيجة، بألوانٍ من الحيل الخطابية والمصادرات الثقافية، لا يتفطن إلى ثغراتها كثير من الناس.

ورد في مقدمة كتابه "الثابت والمتحول" هذا البيان:

"هذا الموروث الثقافي هو أصل ثقافتنا. حين أخذنا نواجهه، منذ احتكاكنا بالحضارة الغربية الحديثة، اكتفينا إجمالا بتمجيد أو تمييز المظاهر التي تلائم إيديولوجياتنا الراهنة، أو التي لا تتناقض معها. فأخذ كل جيل عربي أو كل مفكر يخيط موروثه رداء مطابقا لاتجاه الإيديولوجي: فهو تارة واحة العقل الحر، وتارة السجن والمعتقل، وهو طورا مهد الديمقراطية وطورا آخر، مهد العبودية. وهو، حينا، يتضمن كل شيء، وحينا فقيرا يحتاج إلى كل شيء."[1]

هو حديث في إشكال الموقف من موروثنا الثقافي في ضوء أنساقنا الفكرية الراهنة المتأثرة بطريقة أو بأخرى بالحضارة الغربية الحديثة. وهو إدانة لهذا الموقف الذي يقوم على الانتقاء لا الشمولية، وعلى الخلفية الإدْيُلُوجية لا النظرة الموضوعية، ما يوهم أن أدونيس سيتجه في بحثه هذا اتجاها مختلفا، شموليا، موضوعيا، سؤاليا، يمتحن الثقافة العربية كلها في نسقها العام وبنيتها المهيمنة، لينظر مدى استجابتها لشروط الحداثة. وحقا، كان اتجاهه مختلفا بعض الاختلاف، وشموليا على نحو من الأنحاء، وسؤاليا؛ ولكن بأسئلة مغلّفة بالإدْيُلُجْيا، أسئلةٍ جوابها معها:

---

[1] أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ط4، 1983، ج1، ص4.

"ما الإنسان العربي (المسلم)؟ كيف فكّر ويفكّر؟ ما عالمه الداخلي؟ ما الإرادة عنده؟ ما المسؤولية؟ ما الزمن والأبدية؟ ما العقل؟ ما الفكر؟ ما الشعر؟ ما اللغة؟ هل الإنسان، في وعيه، ذات فاعلة، فرد خلاق، أم مجرد كائن مكلّف؟"[2]

هذه هي أسئلة الامتحان يوجهها أستاذ محمّل بأجوبة الحداثة ومرجعيتها الصلبة الواثقة إلى تراثنا العربي، وعلى هذا التراث أن يثبت أن العربي (المسلم) يفكر كما يفكر الحداثي الغربي، ويتمتع بالإرادة والمسؤولية والحرية كما يتمتع الغربي، وينظر إلى العقل والشعر واللغة كما ينظر الغربي، وأن يثبت خصوصا أنه فردٌ خلاق وليس مجرد كائن مكلّف، وإلا فقد خسر في الامتحان، وقدّم الدليل على أنه لا يستحق أن يُحترَم ولا يستحق أن يحيا في هذا الزمن الحداثي!

ولا شك أن أدونيس يعلم مسبّقا أن العربي المسلم كائن مكلّف بمقتضى إسلامه وعبوديته لله. ولا شك أن المقابلة بين كونه مكلفا وكونه فردا خلاقا هي مقابلة متضمنة للجواب: هو كائن مكلف وليس بفرد خلاق. فلا شك أن النتيجة محسومة من البداية: لا إرادة ولا مسؤولية ولا حرية ولا فاعلية ولا عقلانية ولا حركة فكرية حيث يكون الإنسان مجرد كائن مكلف بتطبيق أوامر الله. لذلك سرعان ما يجيء الجواب الأدونيسي الجاهز: "مما تبيّن لي، في سياق الأسئلة، أن الإنسان كذات مفردة، كخلاق مسؤول، لم يكن موجودا، كمفهوم، في الثقافة العربية-الإسلامية. الأمة هي الكائن الذي يمكن أن يوصف بأنه الموجود، والفرد يحدد بالمكان الذي يشغله في الأمة-الوحدة الواحدة. فهو ليس إلا مجرد برعم في الشجرة/الأمة."[3]

الحديث عن الشجرة/الأمة حديث عن الانتماء/الإسلام. ونفي الفردية عن العربي المسلم إيحاء بنفي الحرية والمسؤولية والإرادة والقدرة على التفكير والإبداع والتجاوز. وذلك هو جوهر أطروحة أدونيس في "الثابت والمتحول"، بل في مشروعه الفكري برمته. أليس هو القائل: "يبدو في هذا المنظور أن الذي تكلم وكتب في المجتمع العربي هو الله وحده، وأن تراثنا يمثّل نوعا من الكتابة الأولى، وكل كتابة يكتبها الإنسان يجب أن تكون شرحا وتفسيرا لهذه الكتابة الأولى."[4]

حين يقرأ أدونيس التراث الفكري والنقدي والأدبي العربي بفكرة مسبّقة بلغت عنده حد الوثوقية المطلقة، مفادها أن الإسلام لله يعني سلب الإرادة والحرية والقدرة على الفعل والنزوع إلى الإبداع، تكون النتيجة جاهزة وحتمية: كلما التزم المسلم إسلامَه ازداد إمعانا في التقليد والتبعية وابتعادا عن التجديد والإضافة والتميّز. وكلما تحلّلَ من قيود التدين وانحرف عن أصول الشريعة وجد في الأرض متسعا للإبداع والتجاوز والفاعلية. وهذه هي فعلا النتيجة التي يستخلصها القارئ

---

[2] المصدر السابق، ص5.
[3] المصدر السابق، ص5.
[4] أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط2، ص81.

لبحث أدونيس في الاتباع والإبداع عند العرب: إن الثقافة العربية ثقافة تقليدية اتباعية لانبنائها على الدين[5]. وإن السبيل إلى الحداثة والإبداع "أن تنتهي هيمنة الدين على المجتمع، وأن تحل محلها هيمنة الحرية والعقل، ويعني ذلك انتفاء الحقيقة القبلية، كما يعلّم الدين، فالحقيقة تالية، إنها تحقق بالعمل، فنحن نتعرف على الحقيقة بالممارسة لا بالنظر أو التأمل، والإنسان، إذن، هو الذي ينشئ الحقائق انطلاقا من فعاليته وممارسته. الحقيقة، بتعبير آخر، تكون ثورية أو لا تكون، من هنا يذكر موقف الرازي وابن الراوندي بما يقوله برودون: من أن الإنسان وجد ليحيا بلا دين، أي فكرة جاهزة مسبقة، مطلقة أو غير مطلقة."[6]

المفارقة الطريفة أن "الفكرة الجاهزة المسبقة المطلقة" التي يدعو أدونيس إلى التحرر منها، ومن ثم من الدين، هي نفسها التي تقف وراء أطروحة أدونيس في تصور التعارض بين التدين والحرية، وبين الإسلام والإبداع. لقد أخذ الفكرة جاهزة مسبقة، واعتقدها صحيحة مطلقة، من المفهوم الغربي للدين والإبداع والحرية، وراح يقرأ بها تراثنا الفكري والأدبي، فلم يشأ أن يصل إلى غير النتيجة التي كان يريد أن يصل إليها: "بما أن الثقافة العربية، بشكلها الموروث السائد، ذات مبنى ديني، أعني أنها ثقافة اتباعية، لا تؤكد الاتباع وحسب، وإنما ترفض الإبداع وتدينه، فإن هذه الثقافة تحول، بهذا الشكل الموروث السائد، دون أي تقدم حقيقي. لا يمكن، بتعبير آخر، كما يبدو لي، أن تنهض الحياة العربية ويبدع الإنسان العربي، إذا لم تتهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي- وتتغير كيفية النظر والفهم التي وجهت هذا الفكر، ولا تزال توجهه (...) وإذا كان التغير يفترض هدما للبنية التقليدية، فإن هذا الهدم لا يجوز أن يكون بآلة من خارج التراث العربي، وإنما يجب أن يكون بآلة من داخله. إن هدم الأصل يجب أن يمارَس بالأصل ذاته."[7]

هي الفكرة الجاهزة، إذاً، والهدف المسبّق والحكم المخبّأ. لأدونيس أن يحدثنا في مدخله عن المنهج والهدف، وأن يجيب عن سؤال سأل به نفسه: "هل أبدأ بفرضيات أضعها، ثم أبحث عما يدعمها في الوقائع والأفكار، أم أبدأ، على العكس، من هذه الوقائع والأفكار؟"[8] بأنه أصر "على تجنب الفرضيات القبلية"، وانطلق "من الوقائع والأفكار كما هي."[9] ولكن ذلك لا يعدو أن يكون ادعاء تنقضه الوقائع. لقد دخل أدونيس بحثه بفرضية، بل بنتيجة جاهزة وحكم مخبّأ وهدف مسبّق، هو اتهام الثقافة العربية بهيمنة التقليد، واتهام الإسلام بأنه وراء هذه التقليدية الاتباعية، لتشجيع القارئ العربي على التحرر من (قيود) الإسلام ما استطاع كي يقدر على معانقة الحداثة في صورتها الغربية. ولو لم يسبّق هذه النتيجة ولم يصرّ على هذا الهدف، لقادته قراءته للتراث

---

[5] أدونيس، الثابت والمتحول، ج1، ص59.
[6] المصدر السابق، ص92.
[7] المصدر السابق ، ص32-33.
[8] المصدر السابق ، ص21.
[9] المصدر السابق ، ص21.

الفكري والنقدي العربي إلى نقيض هذه الفرضية، حين يجد أن الأشعرية والمعتزلة والصوفية والفلاسفة الإسلاميين لم يتمردوا على سلطة الدين، ولم يتحللوا من أصول الشريعة، ومع ذلك اجتهدوا وأبدعوا، وأضافوا وتميزوا، وفكروا وتجاوزوا، باعتراف أدونيس نفسه. ولكن الهدف المسبّق حال دون إذعان أدونيس لهذه الحقيقة، فراح يتخذ من بعض نماذج الإبداع والتميز في التراث العربي وسيلة لما ظنه هدما للأصل بالأصل ذاته، وما درى أنه يهدم بمسلكه هذا أطروحته ذاتها، إذ ليس يخفى على القارئ أن ناقدا فذا متميزا مبدعا مثل عبد القاهر الجرجاني –تمثيلا لا حصرا- يعترف له أدونيس بهذا التميز والفذونية[10]، إنما هو عالم أشعري المذهب، ملتزم بدينه، متقيد بإسلامه، منافحٌ عن تعاليمه.

كان على أدونيس، لولا الإدْيُلُجْيا، أن يقرأ التراث العربي متحررا من أفكاره وقيمه ومفاهيمه المسبّقة الجاهزة. كان عليه أن يقرأ نماذج الاتباع والإبداع معزولة عن فرضيته الواثقة. كان عليه أن يجتهد في تفسير اختلاف المفكرين والنقاد والأدباء في مواقفهم من التقليد والتجديد، ومن القديم والمحدث، ومن الاتباع والإبداع، وتفاوت حظوظهم من التميز والفاعلية، رغم انتمائهم إلى بنية ثقافية واحدة، والتزام معظمهم بأحكام الدين وأصول الشريعة. ولكنه لم يفعل ذلك؛ فقد كبّلت عقلَه الإدْيُلُجْيا، وفرضت عليه أن يصل إلى النتيجة التي كان يريد أن يصل إليها، غير منتبه إلى كثير من الثغرات المنهجية نذكر أهمها فيما يأتي:

2.1.خلط المجالات وتشويش المفاهيم

من مبادئ روح الحداثة، كما يتصورها طه عبد الرحمن، التفصيل. ومعناه أن يُنظر إلى كل حقل أو مجال مفصولا عن غيره من الحقول؛ قصد الإحاطة به وتركيز النظر فيه، وضبط خواصه وتحديد أسراره، وتمييز وظيفته وتفعيل أدائه.

ولكن أدونيس يفعل نقيض ذلك في قراءته لتراثنا الفكري والنقدي. إن مسعاه الإدْيُلُوجي يوجّه خطواته فيملي عليه الفصل حيث ينبغي الوصل، ويقترح عليه الوصل حيث ينبغي الفصل، حتى تصير المفاهيم والمصطلحات والأحداث والمقولات عجينة في يده يتصرف فيها كما يشاء، ويشكلها كيف شاء، ويصوغ بها من الأحكام والنظريات ما يشاء!

معلومٌ أن الدينَ (الإسلام) غيرُ التراث؛ فهو منهج في الاعتقاد والتعبد والسلوك، سنه الله لعباده كي ينهجوه، فهو علوي المصدر، مطلق من حدود الزمان والمكان، وأما التراث فهو ما يرثه البشر بعضهم عن بعض؛ فهو منتَج بشري يجري عليه ما يجري على أفعال البشر من احتمال الخطأ والصواب.

---

[10] ينظر: أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989، ص44-50.

غير أن القارئ لأطروحة أدونيس لا يكاد يجد فرقا بين المفهومين؛ فسهام نقده تتجه إلى التراث البشري العربي، السياسي والفكري والأدبي، غير فاصلة بين هذا المنتَج البشري والدين الإلهي. فهو ينتقد الإسلامَ ذاته من خلال تجسّد منهجه في تطبيقه السياسي وتفسيره الفقهي ومدارسه الفكرية وإفرازاته العملية. وأطروحته في ذلك أن الدين (الإسلام) معرفةٌ صحيحةٌ كاملةٌ جاهزةٌ مسبّقةٌ مطلقةٌ ثابتةٌ، غيبيةٌ ماضويةٌ واحدةٌ موحِّدة، فهي إذاً تقوم على التصديق والتقليد والاتباع والتكرار والعودة إلى الماضي ومطابقة الأصل، وهي إذاً تقمع الإبداع وتحرّمه، وتخنق الفكر وتسجنه، وتحول دون بروز المبادرات الفردية والرؤى الخاصة المبدعة والنزعات الفكرية المتحررة، ولا تسمح بنمو إرادة التغيير والتجاوز، وباتجاه حركة الإنسان نحو المستقبل[11].

وعبثا يحاول المشرف على أطروحته، الأب بولس نويا اليسوعي التخفيفَ من حدة نبرتها النقدية للإسلام ذاته، لا لتفسيراته وتطبيقاته، حين يخاطب أدونيس بقوله: "إذن عندما تتكلم عن الدين لا تقصد "الدين عند الله" في جوهره الظاهر في مبادئه الغيبية، بل تقصد الدين كما عاشه الإنسان، أي الدين لا كما أراده الله وكما يريد أن يكون، بل الدين كما فهمه وطبقه الإنسان."[12] فإن أدونيس لا يميّز بين الأمرين، وانتقاداته لم تقتصر على التفسيرات الفقهية والفكرية للخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين وأكابر العلماء، ولا على التطبيقات السياسية للخلفاء ومن تلاهم من حكام الدولتين الأموية والعباسية، بل طال سنة النبي صلى الله عليه وسلم ذاتها بعدّها رمزا للتقليد والاتباع ومحاربة الابتداع[13]، كما طال الوحي ذاته بعدّ كمالا لا يصح الزيادة عليه ويقينا لا يصح الشك فيه[14]. فالإسلام كما أراده الله هو المتّهَم في أطروحة أدونيس، والتهمة هي الحث على الاتباع ومقاومة الابتداع؛ أما التراث العربي، السياسي والفكري والأدبي، فليس سوى ضحية لتأسسه على هذه البنية الدينية الاتباعية. ولا أدلّ على ذلك من قوله الصريح في "زمن الشعر":

"النقد الثوري هو، إذن، نقد الصحيح لا الفاسد، نقد المبدأ لا التطبيق. نقد النظرة ذاتها. نحن لا ننتقد الرأسمالية مثلا حين نكتفي بإظهار أخطائها. نحن لا ننقد المسيحية أو الإسلام حين نكتفي بالإشارة إلى الفساد في الحياة المسيحية أو الإسلامية. لذلك يجب أن ننقد المسيحية ذاتها كنظرة والإسلام ذاته كنظرة. هذا النقد هو ما يمارسه الشعر الثوري بطريقته الفنية الخاصة. إنه النقد البركاني، المفجر، المغير"[15].

---

[11] ينظر على سبيل المثال: الثابت والمتحول، ج1، ص2-20،7-77.

[12] المصدر السابق، ص15-16.

[13] ينظر: المصدر السابق، ص 131

[14] المصدر السابق، ص131 وما بعدها (فصل "الاتباعية في السنة والفقه"). والثابت والمتحول، ج2، ص125 وما بعدها.

[15] أدونيس، زمن الشعر، ص112.

ولا اعتراض لنا، منهجيا، على اتجاهه بالنقد إلى الإسلام ذاته؛ وإنما نعترض على خلطه بين الدين الإلهي والتراث البشري خلطا أحدث البلبلة وأوهم القارئ المتعجل أن أدونيس لا يهاجم الإسلام ذاته بل يهاجم الذين لم يُحسنوا فهمَه وتطبيقَه. كما أن هذا الخلط أدى إلى اختلالات بيّنة في بناء النظريات وإصدار الإحكام، باعتماده بعض أقوال المسلمين وأفكارهم وأفعالهم غير الموافقة لحقيقة الإسلام أدلةً على اتباعية الإسلام وممانعته لمسار الإبداع، وبغضه النظر عن النتيجة المنطقية لهذا العدد الجمّ من المسلمين الذين اعترف لهم أدونيس بالتميّز الفكري والنزعة الإبداعية، مع أنهم لم يتمردوا على الدين، ولم يتحرروا من قيوده، بل تحركوا وأبدعوا وهم في إطاره، متشبعين بروحه ومبادئه ومنهجه في الحياة.

وقد استتبع خلط أدونيس بين الإلهي والبشري خلطا آخر بين الديني والدنيوي، هو الخلط بين البدعة (في الدين) والإبداع (في الفكر والأدب والثقافة). ولا يخطر في البال أن أدونيس يجهل أن البدعة في الدين هي أن تحدث ما يخالف الأصول الصحيحة التي أوحى بها الله تعالى وبلّغها رسوله صلى الله عليه وسلّم، وأن الإبداع في الأدب والثقافة شأن دنيوي لا يحظره الإسلام بل يدعو إليه ويحرّض عليه ما لم يخلّ بأصل من الأصول الدينية. ولكنه يتعمّد الخلط بين مجالين مختلفين منفصلين بغرض الإيهام بتصادم الإسلام في جوهره مع الإبداع. وتلك حيلة إديلوجية سخيفة لا تنطلي على القارئ المتوسط الذكاء ناهيك عن النابه.

ولا أدلّ على هذا المسلك الإديلوجي القائم على التدليس والاحتيال بتشويش المفاهيم، من خلطه بين الأدب بمعناه الأخلاقي والأدب بمعناه الفني؛ فقد حرص أدونيس على قياس الشعر على الدين، واتهام الثقافة العربية بأنها تقليدية في الشعر كما هي تقليدية في الدين. وحين أطلق عبارته "كان النقد التقليدي يقف من نص القصيدة كما يقف الفقيه من النص الشرعي"[16]، سارت به خطته الإديلوجية إلى أن يذكر تقسيم الألفاظ والمعاني حسب علم أصول الفقه أربعة أقسام، وأن يستنتج أن الهدف من هذا التقسيم هو "تحديد معنى العبارة وما تعبر عنه، تحديدا يقينيا، لكي يمكن الحكم الصحيح."[17] وأن يحكم بأن الموقف التقليدي من الشعر، متجسدا على سبيل المثال في موقف الآمدي من شعر أبي تمام، ليس إلا امتدادا للموقف الفقهي. ثم مضى يخلط بين نظر الفقهاء المسلمين إلى الكلام بعدّه سلوكا أخلاقيا ينبغي أن يُضبَط بضوابط الشرع، والكلام بعدّه ممارسة لغوية وعملا فنيا له قوانينه البلاغية وخصائصه التعبيرية؛ فذكر للمحاسبي رأيه في أن الكلام يجب أن يُلتَزم فيه الحق والصدق، ويُتجنّب استعمال البلاغة للوصول إلى الباطل، وذكر قول النبي

---

[16] الثابت والمتحول، ج1، ص49.
[17] المصدر السابق، ص52.

صلى الله عليه وسلم "إن من البيان لسحرا" مستنتجا منه أن العبارة في ذم البيان لا مدحه، ثم ذكر حادثة حبس عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأحنف بن قيس مخافة أن تكون بلاغته داخلة في قوله صلى الله عليه وسلم "احذروا منافقا عليم اللسان"، ثم بدا له أنه أقام الحجة وأصاب المحجة فأصدر الحكم مستعينا بتعريف الغزالي للأدب (السلوكي):

"ليس الأدب إذن، ممارسة لغوية ينتج عنها خلق أشكال تعبيرية متنوعة، وإنما هو سلوك أو ممارسة بالقول والفعل تهدف إلى تهذيب الإنسان وتساميه. وهذه في الدرجة الأولى، ممارسة دينية.

يقول الغزالي: "والأدب تأديب الظاهر والباطن، فإذا تهذّب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا. ومن ألزم نفسه آداب السنّة نوّر الله قلبه بنور المعرفة.. ومن تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبساط الكرامة...". "[18]

وأسهب أدونيس في نقل نص الغزالي في تعريف الأدب بمعناه السلوكي الأخلاقي، ووقف منه على عدّه الشعرَ إحدى آفات اللسان وحديثِه عن المدح وآفاته بعدّه فعلا سلوكيا لا غرضا شعريا، ثم خلص إلى القول: "نخلص من هذا إلى أمرين: الأول أن "شكل" التعبير يجب أن يرتبط "بمضمون" ديني أخلاقي. والثاني أن الشعر لا يُنظر إليه بذاته وإنما هو كلام، و"الكلام وسيلة إلى المقاصد"- ولذلك فإن كلام الشعر يقيم بمقاصده: فهو حسن إن كانت حسنة وسيء إن كانت سيئة."[19] ثم عرض لما ذكره الشهرستاني في تمييزه بين أهل الديانات وأهل الأهواء فخلص من ذلك إلى القول: "وعلى هذا يكون التمييز بين المسلم والمبتدع هو أن: "الإنسان إذا اعتقد عقدا أو قال قولا، فإما أن يكون فيه مستفيدا من غيره أو مستبدا برأيه، فالمستفيد من غيره مسلم مطيع، والدين هو الطاعة والتسليم، والمطيع هو المتدين، والمستبد برأيه محدث مبتدع". ولا ينطبق هذا المعيار على ما يتعلق بالدين وحده، وإنما ينطبق على ما يتصل بالشعر ومختلف النشاطات الثقافية."[20]

فهل من المنهج العلمي أن يُؤتى بنص في تعريف الأدب الأخلاقي لإثبات تهمة تتصل بالأدب الفني؟ وهل من الموضوعية النقدية أن يُعمَّم ما قيل في الفرق بين المسلم المتدين والمحدِث المبتدِع من أن الأول يأخذ دينه من غيره (الله والرسول وأهل العلم بالدين)، والثاني يعتقد الرأي أو يقول القول مستبدا برأيه متبعا لهواه، يعمّم ذلك على الشعر والأدب ومختلف النشاطات الثقافية؟

---

[18] المصدر السابق، ص55-56.
[19] المصدر السابق ، ص57-58.
[20] المصدر السابق ، ص58.

إن هذا هو التعسف الإديُلوجي بعينه. وإن قراءة تستند إلى الإديلُجيا بمفهومها الدال على المغالطة وتحكيم الهوى هي قراءة لا تنتج غير الأحكام الخاطئة والمنطق المتهافت. وقد علِمَ أدونيس ذاته[21] أن القاضي الجرجاني دافع عن شاعرية المشرك والماجن والفاسق ولم يقبل أن يُخلَط بين الحكم الديني الأخلاقي على الشاعر والحكم الفني الجمالي، وهو لا شك عالمٌ أن الجرجاني مسلمٌ متديّن. كما علِم أن كثيرا من النقاد المسلمين المتدينين دافعوا عن الشعر المحدث ولم يحرموا البدعة في الشعر قياسا على تحريم البدعة في الدين. فهل كان الخلط بين الإلهي والبشري وبين الديني والدنيوي وبين الأخلاقي والجمالي، سوى حيلة من حيل الإديلجيا، لإرغام التراث على البوح بغير ما فيه، وإرغام القارئ على تصديق أطروحة جاهزة وحكم مسبق؟

---

[21] ينظر: زمن الشعر، ص42، 50.